

محمود تركماني : العمل على الذاكرة الموسيقية

ولد محمود تركماني عام 1964 في حلبا ثم ترك لبنان خلال الحرب الأهلية حيث درس في موسكو الموسيقى (الغيتار الكلاسيكي والتأليف الموسيقي). فيما بعد رحل مرة أخرى إلى سويسرا، حيث عمل في البداية معلماً للموسيقى. وبعد إنقطاع طويل عاد محمود تركماني في منتصف التسعينيات مرة أخرى إلى التأليف الموسيقي. وخلال وقت قصير استطاع أن يكون موسيقى للحجرة ذات أسلوب متنوع. ومن هنا بدأ مرة أخرى إهتمامه بالعود. زار محمود تركماني بحكم موقعه كمؤلف موسيقي وعازف في السنوات الماضية العديد من الدول الأوروبية والعربية. فقام بالعزف مثلاً مع عازف الفلوت كونراد شتاينمان وفرقته، ثم مع أوركسترا برن السيمفوني ومع عازفة الكمان باترينسيا كوباشينسكايا ومع عازف البيانو ايفان سوكلوف ثم مع رباعي التريات إراتو مع عازف الكونتراباص باري غاي وعازف الإيقاع كيفان شميراني.

القاهرة - أكتوبر 2003: في فندقٍ يحمل اسم المطربة الاسطورية أم كلثوم يدرّب محمود تركماني مغنية وثمانية عازفين مصريين لساعات طويلة وحتى مطلع الفجر على اعماله الموسيقية الجديدة - الموشحات.

الموسيقيون حائرون وغير واثقين من أدائهم. بعضهم كان قد درس الموسيقى الأوربية بالفعل بينما البعض الآخر مهتم أكثر بالموسيقى العربية. لكن وبالنسبة للجميع، فان موسيقى تركماني التي لا بد أن يعزفوها، هي موسيقى غريبة عليهم، حتى ولو بدت لهم أنها غير ذلك.

بعد أيام قليلة سوف تبدأ أولى الحفلات الموسيقية في القاهرة والاسكندرية. المغنية والعازفون ملتزمون الآن بشكل مسموع وملموس بموسيقى التركماني. يظهر انهم أدركوا جودة موسيقاه، حتى ولو كان الأمر كله غير مألوف لهم من بعد كما من قبل. كان رد فعل الجمهور ممتازاً جداً في معظمه. لقد تبيّن لكثير من المستمعين أن الموسيقار السويسري ولبناني قد تعامل بكثير من الخيال الإبداعي مع التراث العربي، ومع الموشح على وجه الخصوص، وأدركوا أنه يبحث عن أساليب جديدة في مجال الموسيقى العربية.

أمّا الموشح فهو عبارة عن شكل من أشكال الشعر الملاحنّ وقالب من قوالب الموسيقى العربية الكلاسيكية التي تحظى بشعبية لا بأس بها.

انها قصائد ملحنّة تتكلم عن الحب مراراً وتكراراً وبأساليب لا تعد ولا تحصى. انها موسيقى مفعمة بالعاطفية. لقد سبق لتركماني أن قدّم موشحاً في سي دي "فائقة" الذي أنتجته شركة إنيا، قدّمه على شكل عزف مميز على الغيتار والطبلة (مع الفنان الظاهرة كيفان شميراني). عبر موشحاته الجديدة يكتف تركماني مشغوليته بالتراث العربي.

"موسيقي هي مقاربة مستفزة لموسيقى الموشحات العربية التقليدية ومحاكاة في التأليف الموسيقي لتجربة الغربية في سياقها الاجتماعي والموسيقي.

قصدت ألا أكتب الأعمال للآلات الغربية، لنلا يظن الموسيقيون العرب إنها موسيقى أوروبية غريبة وبالتالي لا حاجة لهم للتعامل معها. أخذت على عاتقي مهمة استخراج عالم أصوات جديد من الآلات التقليدية العربية."

يوجد عدد لا يحصى من الموشحات المتوارثة. أما أسماء الملحنين والشعراء فهي مجهولة في أغلب الأحيان. لكن توجد ألحان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأسماء كبيرة مثل سيد درويش أو محمد عثمان. الاعمال المتوفرة (ألحان ونصوص) لتركماني هي جزئياً من "القديم" المتوارث منذ القديم ومنسوبة لأسماء معروفة. لقد عبّر تركماني عن تقديره للأخوين رحباني اللذين لمعت اسمائهم عبر تعاونهما مع المطربة المشهورة فيروز وذلك باستخدامه لأحد الحانها.

في الموشح التقليدي نجد إلى جانب الغناء آلات مثل العود والقانون والكمنجة والناي إلى جانب عدد من آلات الإيقاع مثل الرق والمزهر والطبلة. لقد زاد تركماني عدد العازفين فأضاف عود آخر ثم التشللو والكونتراباص.

بالنسبة للإيقاع وللحن فإن تركماني يعتمد تماماً على التراث العربي ولكن من حين الى آخر يستخدم مقامات بثلاثة أرباع التون.

"يسمع المرء شيئاً تعود دائماً على سماعه ويشعر كأنه يسمعه للمرة الأولى. انها لقاءات مع ظلال الصوت والصمت. انني احاول ان استفيد من حرياتي مع الامكانيات اللانهائية والغير مستنفذة في المجال الهوموفوني (الأصوات الأحادية) والهيتروفوني (الأصوات المتنافرة) من خلال اعتمادي على خط رئيسي (اللحن) كما كانت نغمته أصلاً و اضافتي اللاحقة لخط أول ثم ثان ثم ثالث ثم رابع. وهذه الخطوط الجديدة هي في الواقع ظلال متعددة للخط الرئيسي."

الموسيقى التقليدية العربية هي موسيقى تعتمد على الشرح، فهي تقليدية لأنها تعتمد في مركزها على الغناء والشعر. وتتسم الموسيقى العربية بالهترو فونيا، (التعدد الصوتي)، فالصوت الأساسي، هنا الغناء تحيط به موسيقى الآلات الموسيقية المتنوعة وتضفي عليه ألواناً أخرى. وقد تراجع هذا العنصر كثيراً عبر تاريخ الموسيقى العربية، بسبب ازدياد عدد العازفين مع الوقت. ولكن تركماني يبدأ من هنا، يبدأ من هذا التنوع الصوتي، ويفككه. أي أننا نستطيع أن نقول أن موسيقى تركماني هي تعدد صوتي متطرف، حيث تكتسب موسيقى الآلات التي تحيط بالصوت الغنائي أهمية أكبر - حتى من ناحية الجمل الموسيقية وكثيراً ما تصب الأصوات المختلفة في حقول صوتية شديدة الكثافة، ولا يخشى تركماني هنا

صدام الأصوات بعضها ببعض. ولكن فكل هذا لا ينفي أيضا أن تركماني يحول بعض المقاطع إلى صوت أحادي في سرعة شديدة.

يبدأ تركماني إحدى مقطوعاته بمقام سماعي، شكل تقليدي للآلات الموسيقية (إيقاع 8/10)، يعتمد على نماذج تركية. وعادة ما يكون السماعي لحن أحادي الصوت بشكل صارخ، مما يجعل إيقاعه على الأذن – على الأقل بالنسبة للمستمع الغربي – أحاديا، ولكن هنا يحاول تركماني استكشاف امكانيات أخرى للتعدد الصوتي.

في الموسيقى العربية التقليدية يحتل الارتجال في الغناء أو في الآلات الموسيقية مكانة كبيرة. ولكن تركماني يؤلف حتى للتفاصيل الصغيرة. وفي بعض المقاطع يسمح بالارتجال، إلا أنه لا يثق كثيرا في أشكال الارتجال التي لا تقدم أكثر من إعادة للكليشيهات القديمة.

إن استقبال موسيقى تركماني الجديدة في الشرق لا بد وأنه مختلف تماما عنه في الغرب، لأن الغرب ليس معتادا على شكل الموشحات المتناقل عبر التراث. ولكن مع ذلك، فهي لن تستقبل دائما بحب وفهم في الشرق.

"أبحث دائما عن لغة موسيقية خاصة بي في إطار عوالم الموسيقى المختلفة التي تسكنني. أفكار وأسئلة كثيرة عن إمكانية تطور الموسيقى ومفهوم التأليف الموسيقي تظهر كثيرا في رأسي. أطرح هذه الأسئلة على نفسي وعلى المستمعين في نفس الوقت على أمل أن نجد تفكيراً موسيقياً ولغة موسيقية خاصة أصيلة ومبدعة."

شال كلير / محمود تركماني